نظر في نظرية السياق

دراسة بين القدماء والمحدثين

خالد عبود حمودي الشيخلي

الجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

شغل السياق في البحث اللغوي المعاصر حيزاً واسعاً واستحوذ دوره في تحديد الدلالة على انتباه الباحثين واستأثر باهتمامهم حتى صار نظرية متكاملة ترتبط بجهود علماء كثيرين يأتي في مقدمتهم عالم اللغة الإنكليزي فيرث الذي وضع أهمية كبيرة للوظيفة الاجتماعية للغة.[١]

وقد اعتمد فيرث كثيراً على الأنثروبولوجي المشهور مالينوفسكي الذي ارتبطت به فكرة السياق من قبل، وقد أكد مالينوفسكي أن وظيفة اللغة لا تنحصر في كونها وسيلة من وسائل توصيل الأفكار والانفعالات أو التعبير عنها أو نقلها، فذلك لا يعدو أن يكون وظيفة واحدة من وظائف اللغة، وهنالك وظائف أخرى كثيرة للغة لأنها نوع من السلوك. [٢]

فالكلام والموقف -عنده- مرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً لا ينفصم، وسياق الموقف لا غنى عنه لفهم الألفاظ.[٣]

ومعنى الكلمة عند أصحاب هذه النظرية هو استعمالها في اللغة أو الطريقة التي تُستعمل بها أو الدور الذي يؤديه، ولهذا صرح فيرث بأن المعنى لا ينكشف إلا عن طريق تنسيق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة، لهذا يذكر أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم أن معظم الوحدات الدلالية تقع مجاورة لوحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها.[٤]

وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها حتى ما كان منها غير لغوي، ومعنى الكلمة –على هذا– يتعدد تبعاً لتعدد السياقات التي ترد فيها أي تبعاً لتوزعها اللغوي.[٥]

ولقد أصبحت نظرية فيرث واسعة النفوذ وذات قيمة كبيرة في دراسة المعنى وتتميز بالشكلية ونُعتت بها بسبب عنايتها بتسجيل الحقائق اللغوية على وفق الصور الشكلية والأنماط الحقيقية للصيغ الكلامية للتركيب، ولم يقدم أحد غيره نظرية شكلية مرضية لدراسة المعنى

---

[١] ينظر: السياق في الفكر اللغوي عند العرب:١١٦.

[٢] ينظر: علم اللغة (السعران): ٣٣٨، والتصور اللغوي عند الأصوليين: ٢١٣.

[٣] ينظر: علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٢٤٣، والبحث الدلالي عند سيف الدين الآمدي: ٩٥.

[٤] ينظر: علم الدلالة (أحمد مختار عمر) : ٦٨- ٦٩، والبحث الدلالي عند السمرقندي في كتابه ميزان الأصول: ١٢٨.

[٥] ينظر : علم الدلالة (أحمد مختار عمر): ٦٩.

مثلها، ومهما كان اللغوي متشككاً في القيمة الشكلية فإنه لا يستطيع أن يسقط من اعتباره النظرات الصائبة والاقتراحات السديدة التي طرحها فيرث.[٦]

وتأخذ نظرية فيرث السياقية بالحسبان الأقوال والأشخاص وغيرها مما يكون في الموقف الذي تستعمل فيه اللغة، كالصمت والضحك والإشارة وتُعد نوعاً من السلوك الاجتماعي ذا علاقةٍ بعناصر غير لغوية.[٧]

واللغة -عند فيرث- لها وظيفة اجتماعية، وتُعد هذه الوظيفة عنده أهم شيء بالنسبة للغة، وبسبب هذا الموقف نستطيع أن نفهم نظريته في المعنى، فالسلوك اللغوي العادي -في معظمه- يُعد من العملية الاجتماعية أو هو طريق العمل والتنفيذ في الحياة، ولهذا السبب يؤكد أهمية الرجوع إلى المقام (الموقف الكلامي) أو ما يُسمى بالقرائن الحالية وهي ملابسات النص وظروفه جميعها.[٨]

فالمعنى –عند فيرث– كلٌ مركبٌ من مجموعة من الوظائف اللغوية فضلاً عن سياق الحال غير اللغوي، ويشمل الجانب اللغوي الوظيفة الصوتية ثم الصرفية والنحوية والمعجمية، ويشمل سياق الحال عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم والمخاطب والظروف الملابسة والبيئة.[٩]

وقد أشار أولمان إلى أن نظرية السياق إذا طُبقت بحكمة تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت فعلاً إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن.[١٠]

ويقول أولمان: ((وقد وضعت لنا نظرية السياق مقاييس لشرح الكلمات وتوضيحها عن طريق التمسك بما سَماه الأستاذ فيرث (ترتيب الحقائق في سلسلة السياقات، أي سياقات كل واحد منها ينضوي تحت سياق آخر، ولكل واحد منهما وظيفة لنفسه، وهو عضو في سياق أكبر، وفي كل السياقات الأخرى، وله مكانهُ الخاص في ما يمكن أن نسميه سياق الثقافة)، والحق أن هذا المنهج طموح إلى درجة لا نستطيع معها في كثير من الأحايين إلا تحقيق جانب واحد منه فقط، ولكنه مع ذلك يعدنا بمعايير تمكننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكماً صحيحاً))[١١].

وعَدَ أُولمان المنهج السياقي خطوة تمهيدية للمنهج التحليلي وصرَّحَ بأن المعجمي يجب –أولاً– أن يلاحظ كل كلمة في سياقها كما ترد في الحديث أو النص المكتوب، بمعنى أننا

---

[٦] ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢١٣.
[٧] ينظر : علم اللغة (السعران): ٣٤١.
[٨] ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين: ٣١٣- ٣١٤.
[٩] ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢١٤.
[١٠] ينظر : دور الكلمة في اللغة: ٦١.
[١١] دور الكلمة في اللغة: ٦١.

يجب أن ندرسها في واقع عملي (أي في الكلام) ثم نستخلص من هذه الأحداث الواقعية العامل المشترك العام ونسجله على أنه المعنى للكلمة(١٢).

ولئن فقدت نظرية فيرث شيئاً من أهميتها عند الدارسين بعد وفاته سنة ١٩٦٠م حين طغى التحليل الصوتي والنحوي على الجوانب الشكلية في اللغة، فإن الاهتمام بالدرس الدلالي عاد عند من يُسمون الفيرثيين الجدد في بريطانيا وعند التحويليين في الولايات المتحدة الأميركية(١٣).

وتطرح نظرية السياق منهجاً عملياً في دراسة المعنى له ثلاثة أركان رئيسة هي(١٤):

الأول: وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على ما يسمى بالمقام أو سياق الحال، وسياق الحال أو لما جرى هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للحال الكلامية، وهذه العناصر هي:

١- الكلام الفعلي نفسه.

٢- شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع إن وُجِدوا وبيان مدى علاقتهم بالسلوك اللغوي، وهل يقتصر دورهم على الشهود أم هل إنهم شاركوا في الكلام والنصوص التي تصدر عنهم.

٣- الأشياء والموضوعات المناسبة المتصلة بالكلام وموقفه.

٤- أثر الكلام الفعلي في المشتركين كالاقتناع أو الألم أو الإغراء أو الضحك وغير ذلك.

٥- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كمكان الكلام وزمانه والوضع السياسي وحالة الجو إن كان لها دخل.

الثاني: وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته لكي نضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى أو لهجة وأخرى أو بين مستوى كلامي ومستوى كلامي آخر، لأن من شأن هذا الخلط أن يؤدي إلى نتائج مضطربة غير دقيقة، ومن ثم يجب تحديد البيئة الاجتماعية أو الثقافية التي تحتضن اللغة المراد دراستها، لوجود الصلة الوثيقة بين اللغة والثقافة المحتفة بها وهو ما يمكن أن يسمى بالسياق الثقافي، وهو أمر مهم بالنسبة إلى الفصل بين المستويات الكلامية كلغة المثقفين ولغة العوام أو لغة الشعر ولغة النثر.

الثالث: وجوب النظر إلى الكلام اللغوي على مراحل، لأنه مكون من أحداث لغوية مركبة ومعقدة وتحليلية على هذا المنهج أيسر وأسلم، إذ تقود كل مرحلة إلى التي تليها في سهولة ويُسر. وهذه المراحل هي فروع علم اللغة، والنتائج التي تصل إليها هذه الفروع هي مجموع

---

(١٢) ينظر: علم الدلالة (أحمد مختار عمر): ٧٢، وعلم الدلالة العربي: ٢١٨.

(١٣) ينظر: البحث الدلالي عند سيف الدين الآمدي: ٩٦.

(١٤) ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢١٤ – ٢١٧.

خواص الكلام المدروس، وهذه الفروع وثيقة الصلة في ما بينها، وغايتها إجلاء المعنى اللغوي، فالمعنى اللغوي -كما ذكرنا- له وسائله الصوتية ثم الصرفية والنحوية والمعجمية والوظيفة الدلالية لسياق الحال، ولا بد للوصول إلى المعنى من الربط بين النتائج التي تنتهي إليها هذه التحليلات جميعاً ربطاً يدخل في اعتباره سائر عناصر (سياق الحال).

وهكذا فالوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم ما يأتي[١٥]:

١- أن يحلل المستوى اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة: الصوتية، الصرفية، النحوية، والمعجمية.

٢- أن يبين نوع الوظيفة الكلامية من تمنٍ وإغراء واستفهام وتعجب وغير ذلك.

٣- أن يذكر الأثر الذي يتركه الكلام من اقتناع أو سخرية أو ضحك أو بكاء أو ألم.

إن أهمية نظرية السياق تتمثل في عنايتها بالشق الاجتماعي للمعنى وهو ما يسمى بسياق الحال؛ لأن إجلاء المعنى على المستويات اللغوية (الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية) لا يعطينا إلا معنى المقال، أو (المعنى الحرفي) وهو معنى فارغ من محتواه الاجتماعي والثقافي منعزل عن القرائن ذات الفائدة الكبرى في تحديد المعنى، ولذلك كان من الضروري العناية به، ومن ثم فإن المعنى الدلالي يشمل جانبين أولهما يتمثل في (المقال) والآخر في (المقام) أو سياق الحال.

المحدثون ونظرية السياق

تنبه فندريس أوائل القرن الماضي إلى أهمية السياق قبل ظهور النظرية على الشكل الذي بيناه بيد أنه لم يُعنَ بإبراز أهمية الشق الاجتماعي أي العناصر غير اللغوية[١٦].

فقد وازن فندريس بين ذلك التجريد المنطقي في تفسير الكلمة معجميا من جهة، وما تثيره من أجواء تأثيرية من جهة أخرى، فالكلمة لا تحدد بالتعريف التجريدي الذي ترسمه المعجمات فحسب، إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي لكل كلمة جو عاطفي يحيط بها وينفذ فيها ويعطيه ألوانا مؤقتة بحسب استعمالاتها هي التي تكوّن قيمتها التعبيرية [١٧].

وذهب غيرو إلى أن كل ما يمكننا أن نحمله للكلمة من المعاني يكون ضمنيا افتراضيا، ذلك أنه ما من معنى مقبول أو حقيقي إلا ذاك المتمثل في نص معطى. ولكل كلمة معنى أساسي وآخر سياقي، والسياق الذي يحدد المعنى المخصص لــ(العملية) من بين الاحتمالات العصرية لها: الجراحية، المالية، العسكرية... في قولنا: إن العمليات ما تزال متتابعة في الدلتا. ففي كل حالة نجد الاسم يثير مفهوما محددا[١٨].

---

[١٥] ينظر: علم اللغة (السعران): ٣٤٠- ٣٤١.
[١٦] ينظر: اللغة (فندريس): ٢٢٨- ٢٣٢.
[١٧] ينظر: علم الدلالة العربي: ٢١٦-٢١٧.
[١٨] ينظر: علم الدلالة العربي: ٢١٧.

وينظر إلى المعجم على أنه لا يفي بالغرض إذا ما رغبنا في حصر دقيق للدلالة على وفق السياقات المتنوعة، ومع ذلك لا يُعد هذا نقصا في الدرس المعجمي، لأن المنوط به هو إيراد المعنى المشترك أو المركزي الذي يتشعب إلى مجموعة الحالات الجزئية التي تتباين وتتغاير بعدد السياقات التي تحل فيها، وإن الفروق أو ما يُسمى بالظلال تتسع وتضيق إلا أنها تبقى موصولة بالأصل الذي يرجع إليه في تثبيت الجدة الحادثة، أو اللمحة المضافة، وقد يصعب على نقله إلى مجال بعيد كل البعد عما قُدّر له من قبل. ويغلب على الابتداع والابتكار الجزئي ههنا النمط الأدبي بخاصة في مجازاته وتحولات المعنى فضلا عن المرات التي تستعمل بها كلمات لتعبر عن مخترعات طريفة، أو انفعالات غريبة[١٩].

ونجد من اللغويين المحدثين -من غير أتباع فيرث- من يبين أهميتها القصوى في فهم النصوص اللغوية المنطوقة والمكتوبة، ولكنه يحذر من المغالاة والمبالغة التي يدعيها بعض أنصار هذه النظرية الذين يرون أن الكلمة معزولة عن السياق ليس لها معنًى على الإطلاق، ويرى أن السياق ليس مقصوراً على معناه التقليدي وهو النظم اللفظي لكلمة وموقعها من ذلك النظم، وإنما يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة و اللاحقة فقط، وإنما القطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل كلَّ ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات.

والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن. ويضيف بعضهم إلى ذلك أنه لم يعارض أحدٌ معارضة جدية في تأثير هذه العوامل جميعها على : المعنى الدقيق للكلمات[٢٠].

ويذهب المغالون –من اتباع نظرية السياق المحدثين– إلى أنه ليس للألفاظ دلالة ولا قيمة خارج السياق، ذلك ما يؤكدونه بقولهم: ((عندما أستعمل كلمة يكون معناها هو الذي أختاره لها فقط لا أكثر ولا أقل)) [٢١]، إذ لا يطفو في الشعور أي معنى من المعاني التي تدل عليها الكلمة إلا معنًى واحد يعيّنه سياق النص[٢٢]، وذلك ما أكده جون لاينز أيضاً بقوله: ((من المستحيل أن تعطي معنى الكلمة بدون وضعها في سياق)) [٢٣]، ثم قرر ذلك بقوله: ((أعطني السياق الذي وضعت فيه الكلمة وسوف أخبرك بمعناها)) [٢٤].

يقول برتراند راسل: ((الكلمة تحمل معنًى غامضاً لدرجة ما. ولكن المعنى يكتشف فقط عن طريق ملاحظة استعماله. الاستعمال يأتي أولاً حينئذٍ يتقطر المعنى منه))* .

---

(١٩) ينظر: علم الدلالة العربي: ٢١٧.
(٢٠) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٥٠- ٥١، ودراسة المعنى عند الأصوليين: ٢١٨ ــ ٢١٩.
(٢١) دور الكلمة في اللغة: ٥٥.
(٢٢) ينظر: اللغة (فندريس): ٢٢٨.
(٢٣) علم اللغة بين التراث والمعاصرة: ١٩٢.
(٢٤) علم اللغة بين التراث والمعاصرة: ١٩٢.
* علم الدلالة (أحمد مختار عمر) : ٧٢.

ويذكر أُولمان –في معرض الرد على أصحاب هذا الرأي– أن الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفرق الرئيسي بين الكلام واللغة، وهذا الفرق يتمثل في أن السياقات تكون في المواقف الفعلية للكلام، وغني عن البيان –حينئذٍ– أن معاني الكلمات المخزونة في أذهان المتكلمين والسامعين لا تحظى بالدقة والتحديد إلا حين تضمها التراكيب الحقيقية المنطوقة، مع ذلك لا بد أن يكون لها معنًى أو عدة معانٍ مركزية ثابتة، وهذه قضية مسلم بها على وجه العموم، ولكن عدم وضوح الفرق بيم الكلام واللغة قد عاق كثيراً من العلماء عن منح الكلمات نصيبها من الاستقلال الذي تستحقه[٢٥].

والراجح أن الكلمة تتمتع بدلالة معجمية وهي الدلالة الحقيقية للكلمة، وثمة دلالة تاريخية يكتسبها اللفظ عبر حقبة زمنية طويلة من عمره بتطوره وانتقاله إلى معانٍ جديدة يولدها الاستعمال اليومي، وثمة دلالة ظرفية تنشأ في ظرف معين وفي استعمال خاص، أي إن اللفظ يكتسب دلالة محددة في سياق وظرف معينين يعيشهما المتكلم[٢٦].

ويرى أحد المحدثين أن يقسم السياق تقسيماً ذا أربع شعب يشمل[٢٧]:

السياق اللغوي ويمثل التمثيل له كلمة (حَسَنٌ) العربية أو (زين) العامية، التي تقع في سياقات لغوية مختلفة وصفاً لـــ:

أ- أشخاص: رجل – امرأة – ولد ...

ب- أشياء مؤقتة: وقت – يوم – حفلة – رحلة...

ج- مقادير: ملح – دقيق – هواء – ماء...

فإذا وردت في سياق لغوي مع كلمة (رجل) كانت تعني الناحية الخلقية، وإذا وردت وصفاً للمقادير كان معناها الصفاء والنقاوة.

وأما السياق العاطفي فيحدد درجة القوة والضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً، فكلمة (يكره) غير كلمة (يبغض) بالرغم من اشتراكهما في أصل المعنى.

وأما سياق الموقف فيعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة، كاستعمال كلمة (يرحم) في مقام تشميت العاطس بقولنا: (يرحمك الله)، وفي مقام الترحم بعد الموت (الله يرحمه)، فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا، والثانية طلب الرحمة في الآخرة، وقد دل على هذا سياق الموقف.

وأما السياق الثقافي فيقتضي تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فكلمة (عقيلته) تعد في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة

---

(٢٥) ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٥٥، والبحث الدلالي عند السمرقندي في كتابه ميزان الأصول: ١٢٩.

(٢٦) ينظر: البحث الدلالي عند السمرقندي في كتابه ميزان الأصول: ١٢٩.

(٢٧) ينظر: علم الدلالة (أحمد مختار عمر): ٦٩- ٧١.

لكلمة (زوجته) لها معنى عند المزارع، ومعنى ثانٍ عند اللغوي، ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات.

ومن أصحاب هذه النظرية المحدثين من ركز على السياق اللغوي وتوافق الوقوع أو (الرصف)، وعلى الرغم من أن بعضهم عدَّ هذا الرأي امتداداً لنظرية السياق أو تطوراً عنه فهناك من عدَّه نظرية مستقلة لما تميزت به من أحكام وما وضع لها من قواعد، يذكر أولمان أن هنالك تطوراً مهماً للمفهوم العملي للمعنى تمثل في دراسة طرق الرصف أو النظم وهو ما ركز عليه فيرث وأتباعه. وقد عَرف الرصف بأنه الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة، أو استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين مرتبطتين الواحدة بالأخرى. ومثال ذلك ارتباط كلمة (منصهر) مع مجموعة الكلمات حديد، نحاس، ذهب، وفضة[٢٨].

وتحقق هذه النظرية عدة أشياء أهمها[٢٩]:

١- إنها تعطينا معياراً للتمييز الهومونيمي من الكلمة المفردة ذات المجال المحدد من المعنى، فالهومونيمي مفردات تتفق نطقاً، ولكن تقع في مجموعات مختلفة من الرصف.

٢- ويمكن أن تساعد في تحديد التعبيرات، فإذا كان لفظ يقع في صحبة آخر دائماً فمن الممكن أن يستخدم هذا التوافق في الوقوع كمعيار لاعتبار هذا التجمع مفردة معجمية واحدة (تعبيراً).

٣- وتحدد مجالات الترابط والانتظام بالنسبة إلى كل كلمة، مما يعني تحديد استعمالات هذه الكلمة في اللغة، وتحديد هذه المجالات يساعد على كشف الخلاف بين ما يُعد ترادفاً في اللغات؛ لأنه من النادر أن تأخذ الكلمات التي تُعد مترادفة في لغة أخرى السياق نفسه أو التجمع اللغوي المماثل، وهو أمر لازم لمن يريد استعمال اللغة أو تعلمها.

ولقد واجه المعرضون عدة اعتراضات على نظريتهم هذه تتلخص بـــ[٣٠]:

١- أن فيرث لم يقدم نظرية شاملة للتركيب اللغوي، واكتفى فقط بتقديم نظرية للسيمانتيك مع أن المعنى يجب أن يؤخذ مركباً من العلاقات السياقية ومن الأصوات والنحو والسيمانتيك.

٢- لم يكن فيرث محدداً في استعماله مصطلح السياق مع أهميته، وكان حديثه عن الموقف غامضاً غير واضح، وكان قد بالغ كثيراً في إعطاء ثقل زائد لفكرة السياق.

---

[٢٨] ينظر : علم الدلالة (أحمد مختار عمر) : ٧٤.

[٢٩] ينظر : علم الدلالة (أحمد مختار عمر) : ٧٧- ٧٨.

[٣٠] ينظر : علم الدلالة (أحمد مختار عمر): ٧٣- ٧٤.

وعلى الرغم من هذه الانتقادات التي وجهت لفيرث وجماعته إلا أن السياق أو المنهج السياقي قدم لنا عدة ميزات أهمها[٣١]:

١- أنه يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي، وعلى حد تعبير فيرث أنه يعالج الكلمات باعتبارها أحداثاً وأفعالاً وعادات تقبل الموضوعية والملاحظة في حياة الجماعة المحيطة بنا.

٢- أنه لم يخرج في تحليله اللغوي عن دائرة اللغة، وبذا نجا من النقد الموجه إلى المنهج الإشاري والتصوري والسلوكي من أنها حاولت شرح السيمانتيك في ضوء متطلبات علمية أخرى، وأن البحث عن تفسير للظاهرة اللغوية خارج إطار اللغة يشبه البحث عن منفذ للخروج من غرفة ليس لها نوافذ ولا أبواب، والمطلوب أن نقنع بما موجود داخل الغرفة، أي أن ندرس العلاقات داخل اللغة.

القدماء ونظرية السياق

انتهى علماء اللغة العرب والأصوليون –قبل أن يقرر البحث اللغوي المعاصر نظرية السياق– إلى التنبه إلى جملة من الحقائق المتصلة بقوام هذه النظرية، فابن القيم الجوزيه (٧٥١هـ) من علماء اللغة والنحو والأصول يقول: ((السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل...)) [٣٢] وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، إلى قوله تعالى: ((ذق إنك أنت العزيز الكريم)) [٣٣] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير[٣٤].

وقد استقرت مناهج النظر اللغوي المعاصر على مبدأ التعامل مع النص كلاً واحداً لا يتجزأ، فالأسلوبيون والسياقيون يرون أن السياق يجب ألا يقتصر على الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل ينبغي أن يشمل القطعة كلها والكتاب كله، وكذلك ينبغي أن يشمل –بوجه من الوجوه– كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات[٣٥].

وهذه الحقيقة المنهجية كانت واضحة لدى الشاطبي (٧٩٠هـ) الذي تأكدت لديه أهمية الوعي بالظروف والملابسات المحيطة بالنص فضلاً عما توصي به الدلالات اللغوية لمفرداته ومكوناته العامة. وانتهى به ذلك إلى القول بأن ((المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهو ما يقرره بوضوح علم المعاني والبيان... ومن هنا لا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن

---

[٣١] ينظر : علم الدلالة (أحمد مختار عمر): ٧٣.
[٣٢] بدائع الفوائد: ٤/ ٩.
[٣٣] سورة الدخان: ٤٩.
[٣٤] السياق في الفكر اللغوي عند العرب: ١١٦.
[٣٥] ينظر: دور الكلمة في اللغة: ٦٢.

فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه لا بحسب مقصود المتكلم، فإذا صح له الظاهر على العربية، رجع إلى نفس الكلام، فعما قريب يبدو له منه المعنى المراد)) [٣٦]. ثم يقرر ذلك أيضاً بقوله: ((فعلا هذا لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة، لأنه إذا كان كلياً وفيه أمور كلية كما في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها فلا محيص عن النظر في بيانه)) [٣٧].

ومن هذا التقرير نستطيع أن نصل إلى حقيقة مفادها أن بحث الدلالة المعجمية للفظ ليس غير مرحلة سابقة من مراحل دراسة المعنى عن طريق السياق بشقيه اللفظي والحالي[٣٨].

إن وضوح مبدأ وحدة النص عند العلماء العرب يجد تعبيره الصريح في اشتراطهم استحضار النص القرآني جميعه عند تفسير بعضه، فمن أراد أن يفسر الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أُجمل منه في مكان فقد فُصِّلَ في موضع آخر، وما اختُصِرَ في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر منه[٣٩].

يقول ابن الأنباري (٣٢٨هـ): ((إن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يُعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه)) [٤٠].

ولم يقتصر الأمر لدى العلماء العرب على التنبه إلى أهمية السياق اللفظي العام الذي هو أحد شقي السياق العام، بل تنبهوا إلى أهمية معرفة سياق الحال أو العناصر غير اللفظية في النص، يقول عبد القاهر الجرجاني (٤٧١، أو ٤٧٤هـ): إنك تجد ((في الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الإنسان، وذلك أن الحال تدل على الأمر ويكون فيها إمارات يُعرف بها الشيء كما أن النطق كذلك))[٤١].

وهذا الاهتمام يظهر واضحاً جلياً عند المفسرين الذين وضعوا شروطاً في المفسر تتمثل في إتقانه مجموعه من العلوم أشبه ما تكون بمراحل التحليل اللغوي المذكورة في نظرية السياق يتصل بالتحليل الصوتي منها اشتراطهم أن يكون عالماً بالقراءات؛ لأن علم القراءات يُعرف به كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض، والواقع

---

[٣٦] الموافقات: ٣/ ٤١٣.
[٣٧] الموافقات: ٣/ ٢٦٩، وينظر: ٤/ ١٢- ١٣، ٢٠- ٢١.
[٣٨] ينظر: السياق في الفكر اللغوي عند العرب: ١١٧.
[٣٩] ينظر: البرهان في علوم القرآن : ٢/ ١٧٥، وينظر: السياق في الفكر اللغوي عند العرب: ١١٧.
[٤٠] الأضداد (ابن الأنباري) : ٢، وينظر: البحث الدلالي عند السمرقندي في كتابه ميزان الأصول: ١٦٢.
[٤١] أسرار البلاغة: ٤٨- ٤٩.

أن النص القرآني يتميز من باقي النصوص المكتوبة بهذه الخصوصية الصوتية التي حفظت لنا طريقة أدائه ومواضع الوقف والوصل وغير ذلك مما له أثر في تحديد المعنى.

ويتصل منها بالتحليل الصرفي إتقان التصريف، لأن به تُعرف الأبنية والصيغ ومعرفة الاشتقاق.

ويتصل منها بالتركيب إتقان علوم النحو والمعاني والبيان والبديع، أما النحو فلأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، وأما المعاني والبيان والبديع فلأنه يُعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خصائصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها وبالثالث وجوه تحسين الكلام.

ويتصل منها بالمعجم ما يسمونه بعلم اللغة وهو –لديهم– يعني متن اللغة؛ لأن يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع(٤٢).

ويتصل منها بسياق الحال معرفة أسباب النزول، وهي الأحداث والوقائع الملابسة للنص القرآني. ولا شك في أن استحضارها يعين على فهم معاني الآيات وهو ما يؤكده أئمة التفسير؛ فبهذه المعرفة يزول الإشكال في فهم كثير من النصوص. ومنها معرفة المكي والمدني والترتيب الزمني لنزول الآيات.

إن هذه الشروط التي اشترطت في المفسر تكشف لنا عن إدراك المفسرين الواعي لعناصر السياق اللفظية والحالية وأثرها في الكشف عن المعنى والوصول إلى الوجه الدقيق فيه(٤٣).

وإذا ما انتقلنا إلى البلاغيين رأينا منهم عناية بسياق الحال، وهو ما يسمونه بالمقام، وهو الشق الاجتماعي من شقي السياق العام كما ذكرنا، فمقام الفخر غير مقام المديح وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو الهجاء أو غير ذلك، وعبارتهم المشهورة (لكل مقام مقال) تدل على تمييزهم بين شقي السياق، وهذا التمييز ضروري في تحليل المعنى(٤٤).

بيد أن البلاغيين –لطبيعة دراستهم التي عنوا فيها ببيان أسرار التفاوت الجمالي بين الأساليب– لم يفصلوا في شرح عناصر السياق اللفظي والحال وبيان أثرها في إجلاء المعنى على النحو الذي رأيناه لدى المفسرين أو الذي سنراه لدى الأصوليين، وإن كانوا يعتمدون على السياق في صنوف ما يقدمونه من أنماط التحليل الأدبي، وبذلك يتضح لنا إدراكهم أثر سياق الحال في إجلاء المعنى وتوضيحه، وكيف يتغير معنى العبارة الواحدة بتغير المقام (الموقف الكلامي).

---

(٤٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٢٠٩ – ٢١٥، ودراسة المعنى عند الأصوليين:٠ ٢٢- ٢٢١.
(٤٣) ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٢- ٢٢٣، والسياق في الفكر اللغوي عند العرب: ١١٧.
(٤٤) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٣٧، ودراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٢.

وعناية البلاغيين بالسياق تظهر أوضح وأغلب على عملهم من العناية بالجانب المقامي وبيان أثره وتفصيل عناصره، وتتمثل عنايتهم بالسياق اللفظي في دراسة التراكيب أو (النظم) على النحو الذي بينه عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) فهي دراسة تبين -في الغالب- أثر السياق اللفظي أو النظم في تحديد قيمة الكلمة ودلالتها وبيان الأنسب والأصلح من طرق النظم ووسائله في الدلالة على المعاني التي ينشدها البلغاء في المقامات التي ينظمون فيها، ومن ثم يتبين تفاوتهم بحسب مقدرتهم ودرجة توفيقهم في إحكام النظم[٤٥].

أما الأصوليون فيظهر لديهم تمثل واضح لعناصر السياق اللفظية والاجتماعية وأثرها في تحديد المعنى، وهو تمثل يفوق ما رأيناه لدى المفسرين والبلاغيين بجوانب كثيرة عُني الأصوليون ببحثها، وإن كانت الصلة وثيقة بين عمل الأصولي والمفسر، فالأصولي ما هو إلا مفسر[٤٦].

لقد فطن الأصوليون أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأنها تؤدي دوراً مهماً في حياة المجتمع، وأنها نشأت تلبية لحاجات الإنسان في حياته الاجتماعية، وتنبهوا -كذلك- إلى أن اللغة نظام من العلامات أو الرموز وأنها أرقى من غيرها وأقدر على تلبية حاجات المجتمع، لأن التعارف يتم بأسباب كحركات أو إشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بأزاء المقاصد، وأيسرها وأعمها وأنفعها الألفاظ[٤٧].

وقد أكد الأصوليون الطبيعة العرفية بين الألفاظ والمعاني، وإذا كانت الدلالة الحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته فلا بد للكشف عن المعنى من معرفة قصد المتكلم بالقرائن المختلفة.

ولا يفتأ الأصوليون ينبهون إلى أن الألفاظ المفردة والتراكيب تتعرض -بسبب السياقات اللفظية والمقامية المختلفة- لألوان من التغير الدلالي، ولذلك ينبهون إلى ضرورة الاستعانة بالسياقين اللفظي والحالي أو ما تسميه نظرية السياق بالموقف الكلامي بجميع عناصره[٤٨].

ويختم الأصوليون على من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن لا ينبغي أن يغفل عنها هي في الواقع (مقام) للفهم، منها[٤٩]:

١- ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.

٢- ألا يغفل عن السنة في تفسيره.

---

[٤٥] ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٢- ٢٢٥.
[٤٦] ينظر: دراسة المنى عند الأصوليين: ٢٢٥.
[٤٧] ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٥- ٢٢٦.
[٤٨] ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٦- ٢٢٧.
[٤٩] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٤٨.

٣- أن يعرف أسباب نزول الآيات.

٤- أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

وليست دراستهم للمطلق والمقيد والمجمل والمبين إلا مراعاة للسياق اللفظي العام للقرآن والسنة، ودراستهم للمعاني المتنوعة المتعددة التي ترد بها صيغة الأمر تكشف عن إدراكهم لأثر السياقيين اللفظي والحالي في تحديد المعنى المراد[٥٠].

وقرائن السياق بشقيه اللفظي والحالي هي المحك الذي يتعين به معنى اللفظ المحتمل كالمشترك والمتضاد، إذ يرى غالب الأصوليين أنه ليس له في السياق إلا معنى واحد، والألفاظ والعبارات لا يُحكم بمجازيتها إلا بالقرائن والأدلة ما لم يكن المجاز شائع الاستعمال[٥١].

وإذا كانت هذه الإشارات جلية في توضيح الإطار النظري الذي رسمه الأصوليون وجلُّهم من المشتغلين بدراسة اللغة والنحو لعنصر السياق ودوره في عملية الأداء اللغوي والوظيفة البلاغية للغة ، فإن أئمة النحويين واللغويين كانوا قد تنبهوا منذ وقت مبكر إلى دور السياق في فهم النص اللغوي والتعامل معه، بل إلى الدور الخطير الذي شغله في نظرية المعنى لديهم، ومن ثم انطلقت تحليلاتهم للنص من خلال تصوير الموقف الذي أُطلق فيه النص أو ارتُجل لكي يتيسر لتلاميذهم الوقوف على مجمل الملابسات والدواعي التي رافقت عملية التعبير وأسهمت في توجيهها واختيار الصيغة الملائمة لها[٥٢].

---

[٥٠] ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين: ٢٢٨.

[٥١] ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين : ٢٢٩.

[٥٢] ينظر: السياق في الفكر اللغوي عند العرب: ١١٧.

الخاتـــمة

لقد كانت لعلماء اللغة بخاصة من شارك بعلم الأصول إسهامات نظرية لا يُستهان بها في التنبه إلى الدور الخطير الذي يمثله السياق في توجيه المعنى وتقرير حقائق هذا الدور، وليس بعيداً عنا الجهد الذي بذله علماء البلاغة والبيانيون في تتبع الوجوه والأغراض المختلفة للأساليب والتركيبات اللغوية وما تؤول إليه في سياقاتها المختلفة على الرغم من أنهم نهجوا منهجاً تطبيقياً في تتبع أثر السياق في تحول الدلالة.

وتشهد بذلك مصنفاتهم الجليلة التي ضمت ملاحظات وإشارات عظيمة المدلول إلى (السياق) أو (الاستخدام الفني) أو (طرائق التعبير والتراكيب) أو (خواص النظم والأسلوب) وغيرها من المصطلحات، فظاهرة السياق ظاهرة أصيلة لا كما هو شائع بين كثير من الباحثين ممن تأثر بالفكر الغربي الحديث من أن فكرة (السياق) اقتبسها العرب من الغرب بزعامة الإنثروبولوجي مالينوفسكي واللغوي فيرث الذي وضع أهمية كبيرة لسياق الحال في تحديد المعنى، وليس بعيداً أن الغرب اقتبسوا هذا المصطلح مع ما اقتبسوه في بداية عصر نهضتهم من علوم العرب التي كانت الأساس في نهضتهم الحديثة إلا أن الفارق بين العرب والغرب هو أن أحداً من العرب لم يتخذ من فكرة السياق نظرية علمية متكاملة الأبعاد يؤديها بالحجج والبراهين في ضوء منهج البحث اللغوي الحديث.

المصـــادر

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الديـــن عبد الرحمـــن (٩١١هــ)، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ١، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٣٨٧هــ = ١٩٦٧م
- أسرار البلاغة، الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ أو ٤٧٤هــ)، تح: د.هلموت ريتر، ط ٢، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول، ١٩٥٤م.
- الأضداد، الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد (٣٢٨هــ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠م.
- البحث الدلالي عند السمرقندي في كتابه ميزان الأصول، خالد عبود حمودي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٤٢٢هــ - ٢٠٠١م.
- البحث الدلالي عند سيف الدين الآمدي، خيري جبير الجميلي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤١٧هــ – ١٩٩٦م.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزيه، محمد بن أبي بكر (٥٧١)، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، (د.ت).
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، محمد بن بهادر بن عبدالله (٧٩٤هــ)، تـــح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفـــة، بيروت- لبنان، ١٣٩١هــ - ١٩٧٢م.
- التصور اللغوي عند الأصوليين، د. السيد أحمد عبد الغفار، ط١، دار عكاظ، جدة، ١٤٠١هــ ١٩٨١م.
- دراسة المعنى عند الأصوليين، د. طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٤٠٣هــ - ١٩٨٣م.
- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د.كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ١٩٧٢م، (د.د).
- السياق في الفكر اللغوي عند العرب، د.صاحب أبو جناح، مجلة الأقلام، العدد ٣-٤، السنة ٢٧، آذار نيسان، ١٩٩٢م.
- علم الدلالة، د.أحمد مختار عمر، ط١، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٤٠٢هــ – ١٩٨٢م.
- علم الدلالة العربي، د.فايز الداية، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٥هــ=١٩٨٥م.
- علم اللغة بين التراث والمعاصرة، د.عاطف مدكور، دار الثقافة، القاهرة، (د.ت).

- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران (١٩٦٣م)، دار المعارف، الإسكندرية – مصر، ١٩٦٢م.
- اللغة، جوزيف فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة – مصر، ١٩٥٠م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، إبراهيم بن موسى (٧٩٠هـ)، عني بتصحيحه محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت – لبنان (د.ت).